للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند عليها المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة في كل مدرسة أو جامع فيه زوايا للعلم، أو رباط وقف على طلبة العلم وغيرهم.

وترتكز هذه الدراسة على رغبة في استخراج دور الوقف الإسلامي في تشييد بنية المكتبة العربية على مدار القرون.

الهدف من الدراسة وأهميتها :

تظل معلوماتنا قاصرة عن الوضع الثقافي والفكري الذي شهدته مراحل التاريخ العربي على مدى القرون، والقضية ليست اجتراراً لنتف أو مجاراة لآراء وأقوال للوصول إلى تأكيد وترسيخ لصورة لعل من شكّلها اجتهد حقيقة، ولكن ليس من الالزام قبول ما وصل إليه أو إعادة بنائه بألفاظ مغايرة.

فالقول أن عصر الانحطاط كان بعد سقوط بغداد، هو من الأقوال التي لم تعد تقو على الصمود أمام الحقائق المغروسة المتجذرة التي بدأت تتكشف لنا من خلال محاولة تكوين صورة إجمالية للثقافة والفكر العربي، لا تقوم على التجزئة السكانية، ولا على التجزئة الموضوعية، فإن كان هناك انحطاط في الأدب فليس بالضرورة أن يكون ذلك قد أصاب الطب والفلسفة وعلوماً أخرى.

كل ذلك لابد أن يربط بحركة التعليم في المساجد والمدارس، وأن يربط بالتوجه نحو ترسيخ قاعدة التعليم المرتكز على أسس منفتحة لا يهيمن عليها الكتاب المدرسي، بل الأخذ من أكثر من مصدر والاطلاع على الآراء حميدها ومذمومها لاستخلاص موقف ذاتي، وكان ذلك في تشييد بنية المكتبة العربية.

وقد ارتبطت حركة الثقافة العربية بشكل عميق وقوى بالمكتبة، منذ أن شرع العرب في تشكيل أعمال تأليفية بسيطة وتوجهوا نحو تخصيص مكان يجمع فيه ما يصنف ويؤلف ليصل إليه أكبر قدر ممكن من القراء.

ولعل مما يؤكد ذلك أن عبد الحكم الجمحي شيد في فترة مبكرة مكتبة في مكة وجعلها عامة، ولجذب أكبر قدر من القراء طعمها بوسائل ترفيه وتسلية قد

تدفع من يرضى بذلك إلى محاولة أن يقرأ، فكان سابقاً منذ مئات السنين للإتجاه الغربي في إنشاء مكتبات عامة تملك وسائل ترفيه وتسلية لجذب عامة القراء.

ومنذ البدء كان الفرد هو صاحب الفضل في ترسيخ بنية المكتبة، هو الذي يبحث ويجمع ويكون مكتبة، ثم يوقفها لتكون نافذة ثقافة للجميع.

وقبل المدارس: كانت دور العلم، أو بمفهومنا المعاصر المكتبات العامة، مثل دار العلم في الموصل، ودار العلم في بغداد، ودار العلم في البصرة، ودار الحكمة... وبيت الكتب في الري هي المدارس يذهب العالم وطالب العلم المبتدىء إليها فيقرأ.. ويطالع.. وإن أتيح له الوقت ناقش وجادل وحاور من يلتقي بهم في أحضان المكتبة العامرة.

وكأنما رجال الإصلاح ومحبو الخير وجدوا أن المكتبة العامة وحدها لم تعد تكفي وتشبع نهم طلاب العلم، فكان أن شيدت المكتبات في الجوامع... ثم ظهرت المدارس فتواكب قيام المدرسة مع قيام المكتبة.. وما كان الفرد الذي يقيم مدرسة يفعل ذلك دون أن يقيم مكتبة في داخلها أو بجوارها.

كل ذلك لم يكف فجاءت مكتبات المارستانات أو (المستشفيات) بلغتنا المعاصرة لتكون مكتبات متخصصة، ومكتبات الربط والخانقاهات، فمن لم يتمكن من الاطلاع والقراءة في المكتبات العامة ومكتبات المدارس والجوامع.. عاد إلى رباطه فاستخدم مكتبة الرباط أو الخانقاه فقرأ واستمتع.

وما قدم جاء في ظل تنظيم وترتيب دقيقين لكافة الجوانب ذات العلاقة بالكتاب والموظف والمستفيد.

وتكشف هذه الدراسة جانباً من جوانب إشراق الماضي، وتكشف أيضاً بعض أسرار التراث لمن يرغب أن يخوض في بحره اللجب دون تحيز، ودون أن يستهدف بذلك عمل مفاضلة بين ماض مشرق، وحاضر لا بد أن يكون مشرقاً، فالتراث ليس قصيدة وليس قطعة إنشاء بديعة، وهو ليس طريقاً لقتل روح الإبداع المعاصر بحجة حماية التراث والحفاظ عليه، بل هو فتح واستخراج لشواهد تدلل على أن ما كان في الماضي لا يقل عظمة وقوة عما هو في الحاضر لدى الأمم والشعوب المتقدمة.

وإذا كان يعجبنا الاهتمام الغربي بالمكتبات وتركيزه عليها من واقع معرفته بدورها في التشييد والبناء الحضاري، فإن الماضي يشهد أن ذلك ما فعله الآباء والأجداد، فكانت المكتبة في المدينة الكبيرة والقرية الصغيرة مفتوحة للجميع، وكل ذلك اعتماداً على الوقف، دون أن ينتظر الفرد أن تقوم الدولة بإنشاء المدرسة ثم المكتبة أو المكتبة العامة، أو الجامع والمكتبة.

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح نشأة ومسار المكتبة العربية التي اعتمدت على الوقف أو قامت عليه، دون تناول المكتبات الخاصة أو تلك التي لم يثبت ما يؤيد وقفها كل ذلك اعتماداً على الشواهد التراثية طالما توفرت، مع الإستعانة بأعمال حديثة عند عدم توفر النص التراثي، وعدم التوفر غالباً ما يكون عجزاً وكسلاً من الباحث نفسه.

وتنطق الدراسة من مجموعة من المسلمات التي تتمحور حول التالي :

١ ــ أن وقف الكتب عند المسلمين كان العامل الأساسي في توفير المعرفة لطلاب العلم على مدى قرون طويلة.

٢ ــ أن هذا النمط من الوقف أسهم في انتشار المكتبات بأنواعها المختلفة في التاريخ الإسلامي.

٣ ــ أن الكتب الوقفية تبددت وفقد منها الكثير نتيجة للإهمال وتعرضها للسرقة والنهب.

٤ ــ أن أغلب التراث العربي الإسلامي المخطوط الذي تضمه المكتبات في العالم كان نتيجة لتجميع المكتبات الوقفية في العصر الحديث، أو التصرف في الكتب الوقفية بالبيع، وبالتالي قيام أفراد أو هيئات بشرائها ووضعها في مكتبات من جديد.

الدراسات السابقة :

تعرض مجموعة من الباحثين العرب لموضوع وقف الكتب والمكتبات من بينهم الدكتور عبد اللطيف إبراهيم أستاذ الوثائق في قسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب بجامعة القاهرة الذي وضع مجموعة من الدراسات الوثائقية التي كشفت جوانب من هذا الموضوع ، وقد جمع تلك الدراسات ونشرها في كتاب بعنوان: